

قضية الفصحى والعامية

الاستاذ سامح المصري

فان كل امة من الامم تحتاج الى لغة « موحدة »
تزيدها تجاوبا وتماسكا ، فنكون « موحدة » .

لان مهمة اللغة — في الحياة الاجتماعية المعتدة
الحالية — لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين
الذين يعيشون في قرية واحدة او مدينة واحدة ، ولا
بين الذين ينتسبون الى اقليم واحد ، او قطر واحد ،
بل هي ضمان التفاهم والتكاتب والتجاوب .. بين
جميع ابناء الامة ، على اختلاف مدنهم واقطارهم .

والتاريخ الحديث ملئء بامثلة بليغة ، على
الجهود الجبارة التي بذلها ، ولا يزال يبذلها ، عدد
غير قليل من الامم والدول في هذا السبيل
توطئة لاستقلالها او ضمانا لوحدها .

فنحن العرب نفتقر اليوم الى (لغة) يتفاهم
بها جميع الناس في جميع الاقطار العربية .

ولكن ما السبيل الى ذلك ؟

ماذا يجب ان نعمل للتخلص من البلبلة الحالية،

ان قضية الفصحى والعامية ، من اهم المشاكل
التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ،
في مختلف البلاد العربية ، منذ مدة غير يسيرة .

ذلك لان الفصحى لا يعرفها الا المثقفون ، ولا
يتخاطب بها الا طوائف محدودة من هؤلاء ، واما
العامية الدارجة ، فكثيرة الانواع تختلف اختلافا بينا
لا من قطر الى قطر فحسب ، بل من مدينة الى مدينة
في القطر الواحد ايضا . حتى انها تختلف بعض
الاختلاف من حارة الى حارة ، ومن جماعة الى جماعة
في المدينة الواحدة ، في بعض الاحيان .

اذن فنحن — عرب اليوم — بين لغة فصحي
يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية ،
وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع
الناس ، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد
العربية .

ولا حاجة الى القول ان هذه الحالة مخالفة
لمقتضيات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة .

والنعم بنعمة « لغة موحدة موحدة » في جميع الاقطار العربية ؟

إذا تأملنا في هذا الامر بالمنطق المجرى خطر على بلانا ثلاثة سبل اساسية :

(أ) السعى وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة - أى لهجة من اللهجات العامية - على جميع البلاد العربية ..

(ب) السعى وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب ، في كل قطر من الاقطار العربية .

(ج) السير على طريقة متوسط بين الاولى والثانية ، على تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى؟

ولا حاجة للبيان ان الطريقة الاولى - أى تعميم واحدة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية - غير منطقية وغير عملية ، فلا بد من التوجه الى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة وأسس متينة ، وممثلون اقوياء ، في جميع البلاد العربية ، لذلك يحسن بنا ان نحصر البحث والنقاش في الطريقتين الاخيرتين وحدهما :

من المعلوم ان قواعد الفصحى ، في حالتها الحاضرة ، معقدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجات الدارجة بعدا كبيرا ، فيجدر بنا ان نتساءل : هل من الضروري ان نتمسك بجميع تلك القواعد التى وضعتها او دونها اللغويون منذ قرون عديدة ؟ هل يتحتم علينا ان نصرف قوائنا في سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والاساليب ؟ الا يمكن ان نختصر ونبسط اللغة الفصحى ، ونشذبها تشذيبا معقولا ، يكسبها شيئا من السهولة ، من غير ان يفقدها ميزتها التوحيدية ؟ افلا نستطيع ان نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطمينا يبعثنا عن حذقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس في وقت واحد ، فيوصلنا الى فصحي متوسطة ، معتدلة ؟ افلا يحسن بنا ان نلجأ الى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير والتقدم نحو الفصحى التامة ؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة - اجابة صحيحة

- تتطلب القيام « بأبحاث علمية » واسعة النطاق ، تتناول الفصحى والدارجات في وقت واحد ، وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .

اولا ، يجب ان نبحث : ما هى الحدود الفاصلة بين الفصحى والعامية ؟ ما هى الفروق التى تميز الاولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية نطقها من ناحية ، ومن حيث التراكيب واسلوب ترتيبها من ناحية اخرى ؟

وفي امر المفردات : هل يجوز لنا ان نعتد على المعاجم والقواميس المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب ان نفكر في ذلك مليا ، لانه من المعلوم ان تلك المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد احد يشعر بحاجة الى استعمالها ، ومقابل ذلك انها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعمالها ولا يزال يستعملها اشهر العلماء والادباء في اهم آثارهم العلمية والادبية ، كما ان الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معان تختلف عن المعانى التى كان قد دونها القديمان كل الاختلاف . فلا بد لنا من ان نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز الفصحى عن العامى تمييزا معقولا .

وفي امر القواعد : هل يترتب علينا ان نعتبر آراء العلماء القديمان القول الفصل فيها ؟ أفلم يختلف هؤلاء انفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفضيل والترجيح ؟ أفلا يحق لنا ان نعيد البحث والنظر فى تلك الاقوال والآراء ، وان نسلك مسلكا يختلف عن مسالكهم في امر التجويز والتفضيل ؟ وهل يتحتم علينا ان نسعى وراء نشر وتعميم تلك القواعد بحذائرها ؟ أفلا يمكننا ان نستغنى عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيدا وأكثر قابلية للانتشار ؟ وفي الاخير ، لو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، افلا يجب علينا ان نرتبها ترتيبا معقولا ، لنقدم الهم على المهم ، ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا « التفصيحية » ؟

ثانيا : يجب علينا ان ندرس اللغات العامية واللهجات المحلية ، المنتشرة في مختلف البلاد العربية : ما هى انواعها ؟ وما هى خصائص كل نوع منها ،

ثم ان ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والارياف من جهة ، وبين الاقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى الى حدوث تغير محسوس في أوصاف اللهجات المحلية وفي التعبيرات العامية أيضا : صارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيرا كبيرا في اللهجات الفرعية ، كما ان لغة عامة الناس أيضا أخذت تتهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وازدهار الصحافة ، وتعريب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالى اذا قلنا : انه اخذ يتكون في بيئات المتفتحين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية .

فيحسن بنا ان نتمق ونتوسع في درس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستفيد بها في تقرير خططنا الاصلاحية .

* * *

يتبين من كل ما تقدم ان الابحاث اللغوية لا يجوز ان تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ، بل يجب ان تخرج الى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب ان لا ننسى ان علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ودونوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا ان نقتدى بهم فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والتجار ، في المدن والارياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والاطفال .

ولا يجوز ان نتعاس عن العمل في هذا السبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى . . اذ يجب علينا ان نعلم علم اليقين بان تغيير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواحيها .

من حيث الكلمات والالفاظ والتعابير ؟ وما حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما هي اسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ؟ الا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصحى كل الانطباق ؟ الا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشاركة ؟ الا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشاركة على وجود دواع عامة وضرورات مشتركة ؟ افلا يجب علينا ان نستكشف هذه الدواع والحاجات ، لكي نستطيع ان نعالجها بأساليب اقرب الى الفصحى على قدر الامكان ؟

ان كل هذه الامور والمسائل يجب ان تدرس وتبحث بكل اهتمام .

وفضلا عن ذلك يجب علينا ان نتبع التطورات التاريخية أيضا : من المعلوم ان اللغة كائن حى ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع ، وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات ، اذ لكل كلمة وكل أسلوب ، في كل لغة وفي كل لهجة تاريخ طويل او قصير ، ماض تريب او بعيد .

ان نظرة فاحصة سريعة الى ما طرا من تحولات على اللغة العربية في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا - منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى مثلا - تكفى للتأكد من صحة ما قلناه آنفا : لقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدواوين ، وفي لغة الصحف ، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات ، في جميع البلاد العربية ، فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة ، مشتقة من اصول فصيحة ، او مقتبسة من لغات اجنبية . ومعظم هذه الكلمات المقتبسة كانت فرنسية في بعض البلاد العربية وانكليزية في بعضها الآخر ، وذلك تبعا للاوضاع السياسية الخاصة التي طرات على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة اخرى بدأت حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الاجنبية واستبدال كلمات عربية بها .